حديث عيسى بن هشام
بين المقامة والرواية

فى المقدمة القصيرة التى كتبها محمد المويلحى لحديث عيسى بن هشام يصف المؤلف الكتاب فيقول انه « وان كان فى نفسه موضوعا على نسق التخييل والتصوير فهو حقيقة متبرجة فى ثوب خيال .. حاولنا أن نشرح به أخلاق أهل العصر وأطوارهم وأن نصف ما عليه النـــاس فى مختلف طبائعهم من النقائص التى يتعين اجتنابها والفضائل التى يجب التزامها » .

فالكتاب فى نظر مؤلفه حقيقة أولا ، وخيال بعد ذلك ، والحقيقة هى القصد الأكبر من تأليفه ، وهى لا تقصد لحد ذاتها ، وانما يستهدف بها المؤلف أن يصلح المجتمع وينشر فيه الخير ، ويدفع عنه الشر ، هذا هو الهدف « الشريف » الذى من أجله اضطر المؤلف الى أن «يتنزل» قليلا فيستخدم من أجل بلوغه شيئا من الخيال ألبسه حقيقته وله فى رسول

الله أسوة حسنة ، فقد كان الرسول يمزح ولا يقول الا حقا . كما يسارع المويلحى الى تنبيهنا فى صفحة العنوان .

ويوافق المؤلف على هذا الاتجاه الذى يضع المادة فى المحل الأول ، ويردفها بالفنية على شىء من الاستحياء ، الشيخ سالم بوحاجب شيخ العلماء ، وصاحب الافتاء بالمملكة التونسية ، الذى أهداه المويلحى نسخة من الطبعة الأولى ، فهو يشير فى رسالة للمويلحى الى أن الأخير قد انتحل مهارة الطبيب ، فهو يشرح النصائح بأسلوب عجيب لا يتطرقه انكار أو تكذيب .

أما جمال الدين الأفغانى ، فهو يستخدم لوصف الكتاب استعارة أكثر انطباقا على حقيقته ، كمادة وصنعة معا ، حينما يشير اليه على أنه « اللطيفة الموسوية » . فالمويلحى فى هذه الاستعارة هو النبى موسى الذى اضطر فى أرض السحر الى اصطناع السحر وسيلة لنشر الحق وهزيمة الباطل . ولكن الاستعارة ، وان كانت تجعل للكتاب حظا أوفر من الفنية ، لا تغفل الغرض التعليمى الذى يؤكده كل من المؤلف والشيخ سالم بوحاجب . ان موسى الجديد يلجأ للفن كوسيلة لبلوغ هدفه ، مجرد وسيلة سيعرض عنها وينساها

متى أدت غرضها ، كما ترك موسى السحر ، يوم التهمت أفعاه أفاعى المصريين وهزمت مكرهم .

هذه هى دعوى المؤلف ، ودعوى أستاذيه اللذين أهداهما الكتاب ، فهل نصدقها ؟ هل نعتبر (حديث عيسى ابن هشام) نقدات اجتماعية فى المحل الأول ، حاول المؤلف أن يخفى طعمها المرير بطلائها بشىء من سكر الخيال — شىء قليل ، لم يتأنق فيه ولم يتعمق الا بقدر ما يفى بالغرض ؟ هل نوافق الشيخ سالم بوحاجب على أن مهمة الكتاب الأولى هى « شرح النصائح » ونغفل عن « الأسلوب العجيب » الذى لجأ اليه المويلحى فى « شرحه » ؟

الواقع ان الفنية فى « الحديث » ليست من التأخر بحيث يحل لنا أن نأخذ نظرة المويلحى اليها على علاتها . وسيحاول هذا البحث أن يثبت الى أى مدى تعتبر هذه الفنية متقدمة . انما المهم هنا أن نثبت أن المويلحى كان فيما يبدو يشعر بشىء غير قليل من الاستحياء للجوئه الى استخدام الخيال فى بذل النصح . ان هذه لم تكن فى أيامه طريق الناس الشرفاء المحترمين ، لهذا نجده يستنجد بهذا الذى هو مأثور عن النبى ، ويعنى بابراز تقدير عالمين جليلين لكتابه . أما الأفغانى فينصح له بأن يضع فنه وأدبه فى خدمة مصر ،

حتى تكون كلمة الحق هى العليا ، ويحذره من أن يكون من الذين « غرتهم أنفسهم بباطل أهوائها ، وساقتهم الظنون الى مهواة شقائها وحسبوا أنهم يحسنون صنعا » . وربما يمكن تفسير هذه العبارة على أنها توقير للفن متى وضع فى خدمة المجتمع ، واعتباره نوعا من أهواء النفس متى أعرض عن اعتناق هدف .

أما الشيخ سالم بوحاجب ، فهو يشير الى المقاومة التى يتوقع أن يلقاها « الحديث » لدى بعض الناس فيقول ان من واجب العلماء أن يتعلموا منه « طريق النصح فى التعليم وعدم النفرة من الحديث لمجرد كونه لم يعهد فى القديم » . فهذا الذى يسير فيه المويلحى اذن طريق جديد لم يعرف من قبل ، والعالم الجليل يرجو ألا يحمل وجود هذا الجديد الناس على الاعراض عن مضمون الحديث .

يؤيد هذا التفسير الذى أتقدم به ما سمعته يوما من الأستاذ توفيق الحكيم من أن بعض المشفقين على سمعة آل المويلحى ، ذهبوا الى والد محمد المويلحى وشكوا له من أن ابنه يسير فى طريق لا تحمد مغبة المضى فيه ، بانشاء كتاب يجرى مجرى أدب العوام ، فعلى ضوء هذه النظرة المعاصرة ، نستطيع أن نفهم رغبة محمد المويلحى الواضحة

فى التقليل من شأن الخيال فى كتابه ، وتأكيد دوره التعليمى والوعظى ، كما ندرك أيضا مقدار تقدم كل من العالمين الجليلين ، الأفغانى وسالم بوحاجب ، اذ يدافعان عن كتاب هذه نظرة المعاصرين له .

على أنى أحب منذ البداية أن أوضح اننى لا أنوى انكار وجود الجانب التعليمى فى الكتاب ، وطغيان هذا الجانب فى أجزاء كثيرة على النواحى الفنية فيه ، مما يسبب للقارىء الحديث كثيرا جدا من الضيق ويجعل قراءته أمرا شاقا حقا . كل ما أدعيه أن ما فى الكتاب من صنعة يجعله عملا فنيا قائما بنفسه ، جديرا بالاعتبار على المستوى الفنى بالذات .

فليس لنا والحال هذه أن نعتذر « للحديث » بأنه وان كان ضعيفا فنيا ، الا أنه يحوى مادة قوية ، فالواقع أنه يقوم على أسس فنية هى من القوة بحيث تبرر قيام الكتاب كعمل فنى بصرف النظر عن عناصره الأخرى .

فاذا سلمنا بهذا ، فما هو الشكل الفنى الذى يأخذه « الحديث » ؟ أين يمكن وضعه كعمل فنى ؟ وتحت أى لون أدبى يمكن ادراجه ؟

ان « حديث عيسى بن هشام » رواية فكاهية من النوع

الذى يستخدم أرقى أنواع الفكاهة للوصول الى غرضه . انه مثل طيب من أمثلة كوميديا النقد الاجتماعى ، والصيغة الفنية التى يستعملها لنقد المجتمع تربطه برواية أخرى عالمية الشهرة ، لعلها أعظم ما استخدم هذه الصيغة الفنية بالذات من روايات ، تلك هى « دون كيشوت » .

فى رواية سير فانيس نجد فارسا قلبه وعقله مليئان بالأحلام ، أحلام عصور جميلة ماضية ترفض أن تموت ، ولهذا يصحب دون كيشوت أحلامه الخالدة هذه ، ويصحب تابعا ، وجوادا هزيلا ، وحمارا ، ويذهب الجميع فى رحلة بحث .. بحث عن الجمال والحق اللذين ماتا فى المجتمع المحيط بالفارس ، وان لم يموتا فى قلبه ، ومن المفارقة المضحكة المؤلمة بين واقع المجتمع وواقع دون كيشوت ، يستخرج سير فانتيس بعضا من أعمق مؤثراته الفنية ، ويستحدث كثيرا من أبرع وألذع نقداته . ان المفارقة فى روايته هى بين الواقع القبيح الذى ينبغى أن يموت ، والخيال الجميل الذى يستحق أن يحيا ، وهذا هو الدرس العميق الذى تقدمه روايته .

ولو تأملنا رواية المويلحى مليا ، لوجدناها تقوم أساسا على نفس المقابلة ، المقابلة بين عقلية الباشا الذى قام من

الأموات ، ليجد الدنيا تغيرت من حوله ، فماتت قيم جميلة كان ينبغى لها أن تظل حية ، وقامت قيم جديدة يشك كثيرا فى استحقاقها للبقاء . ومن التصادم بين عقلية الباشا القديمة ، وعقلية معاصريه الجدد ، ينتج المويلحى نقده الاجتماعى الطريف .

وكما يحدث فى رواية سيرفانتيس ، يخرج الباشا فى رحلة بحث .. بحث عن الحقيقة فى كل مكان ، ولعل أهم ما تضمه هذه الحقيقة من معان هو روح مصر ، فالباشا وعيسى بن هشام يقومان فى الواقع برحلتين بحثا عن روح مصر . الرحلة الأولى محلية ، وان كانت تمتد فى الزمان الى الوراء عصورا متتابعة ، والرحلة الثانية خارجية ، يذهب فيها الباشا وعيسى الى فرنسا ليدرسا الوافد الجديد الى بلادهما دراسة وافية على الطبيعة — ذلك الوافد هو المدنية الغربية .

وفى أثناء الرحلة الداخلية تعرض نواح عديدة من الحياة فى مصر أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، وتتعرض هذه النواحى لتيار متصل من النقد ، نستطيع من خلاله أن تتبين الحقيقة التى يخرج الفريق للبحث عنها ، هذه الحقيقة ، باختصار ، هى مصر البورجوازية ، فعن طريق

تصارع الأفكار بين الباشا من جهة وبين عيسى بن هشام ونماذج مختلفة من البورجوازيين المصريين ، مثل المحامى ، والطبيب ، تتبين أن المثال الأعلى للحياة الاجتماعية فى مصر هو الطبقة البورجوازية ، وأقول المثال الأعلى ، وأنا مدرك أن هذا المثال نفسه يتعرض بدوره لنقد شديد من المؤلف ، الذى لا يغفل عن معايب البورجوازيين المصريين الكثيرة ، ولكن نقده لهؤلاء يستهدف الاصلاح ، أى أنه يرى الابقاء عليهم بعد أن يتلافوا عيوبهم . أما أرستوقراطيو الاستعمار التركى ، واسنادهم من العلماء والمشايخ ؛ وأما المستعمرون الانجليز والأجانب بصفة عامة ، فان النقد الذى يوجهه اليهم المويلحى انما هو نقد تحطيم ، انهم جميعا الأعداء الذين يعوقون مصر الناهضة عن الحركة ، الأول يشدونها الى ماض يجب أن تتخلص منه ، والآخرون يمنعونها من التحرك الى المستقبل الذى كانت البورجوازية المصرية اذ ذاك تحلم بالانتقال اليه .

ولكى نوضح هذا الكلام العام ، يجدر بنا أن نأخذ أمثلة من الكتاب .

ففى الفصل المعنون « المحكمة الأهلية » يعيب عيسى ابن هشام على علماء الشرع جمودهم ومعارضتهم للتقدم

فيقول معبرا عن فكرة حبيبة لدى البورجوازيين المصريين : انهم « لم ينتبهوا يوما الى ما تجرى به أحكام الزمن فى دورته ، ولم يفقهوا أن لكل زمن حكما يوجب عليهم تطبيق أحكام الشرع على ما تستقيم به المصلحة بين الناس ، بل ظلوا واقفين عند الحد الأدنى .. فكانوا سببا فى تهمة الشرع الحنيف بخلل الحكم .. وقلة الغناء فيه لانصاف الناس .. حسب ما تجدد به حالات الزمن .. ومن هنا تولدت الحاجة الى انشاء المحاكم الأهلية بجانب المحاكم الشرعية » .

هنا نجد فكرة أثيرة لدى الطبقة الوسطى المصرية التى كانت تتطلع الى الحكم ، وترى أن المؤسسات الفكرية والقانونية والشرعية المتخلفة من عهد الاقطاع تقف حجر عثرة فى سبيل قضاء حاجاتها ، فأخذت تهاجمها وتطالب بانشاء مؤسسات أخرى تقوم بعملها وتلتصق بالسادة الجدد أكبر التصاق . غير أن هذه الطبقة لم تكن — مع هذا — من الثورية بحيث تدعو الى الغاء هذه المؤسسات القديمة فاكتفت بأن تنشىء مؤسساتها هى الى جوار المؤسسات القديمة ، كما حدث فى المحاكم والمدارس والصحف .

وفى الفصل المعنـــون « محكمة الاستئناف » يوجه المحامى هجوما عنيفا ضد الأمراء والحكام — أى ممثلى الاستعمار التركى — على أساس أنهم مستغلون ، يبتزون أموال الشعب ، ويمتصون دماءه ، ويلخص قضيته بقوله : ان الدهر سلط المماليك على المصريين ينهبون أموالهم ويسلبون أقواتهم ، ثم سلطكم عليهم لسلب ما جمعوه ، ثم سلط عليكم أعقابكم فسلموا مجامع ذلك للأجانب يتمتعون به على أعين المصريين ، والمصريون أولى بالقليل منه ، وما دفع بأعقابكم الى هذا الليان والتسليم الا ما ورثوه عنكم من الاحترام لشأن الأجنبى والاحتقار لجانب المصرى ، وانكم لم تكتفوا بأن تكونوا أربابا للمصريين حتى شاركتم معكم الأجنبى فى تلك الربوبية ، فغلبكم عليها وأشرككم مع المصريين فى العبودية وتشابهت الموالى بالعبيد » .

هذان موقفان فكريان مألوفان من البورجوازية المصرية المهاجمة ، فى المرحلة التى تنشط فيها لتحطيم قيم ما سبقها من مجتمعات ، غير أن « الحديث » لا يكتفى بالهدم بل يقدم قيما جديدة محل القيم القديمة ، ومن هذه القيم الايمان بالعمل ، وضرورة أن يكون « لكل انسان

آلة بينة من صناعة أو حرفة أو مهنة يحسن بها التعيش والارتزاق » ، كما يقول المحامى فى حديثه مع الباشا وعيسى ابن هشام .

ومن هذه القيم الجديدة أيضا وجوب التمسك بالقانون والخضوع لأحكامه بدلا من التعالى عليه كما كان يفعل أمراء الاقطاع ، الذين كانوا يعتبرون أنفسهم مصدر القانون ، وهذه الفكرة يدافع عنها عيسى بن هشام دفاعا مقنعا فى حديثه مع الباشا الذى يرى فى الخضوع لأى حكم لا يصدر منه هو نفسه عارا لا يستر منه الا الموت .

ومن القيم البورجوازية الايجابية أيضا الايمان بالعلم الحديث الذى يمثله فى الكتاب الطبيب الشريف الذى عالج الباشا وخلصه فى الوقت نفسه من بعض مجرمى الأطباء ، كما يمثله معمل الكيماوى الذى ذهب اليه الباشا وعيسى ، ورأيا فيه ملايين الميكروبات تسبح فى نقطة من الماء تحت عدسة الميكروسكوب .

هذا ، وكثير غيره يكتشفه الباشا وعيسى بن هشام فى رحلتهما الداخلية ، بحثا عن الحقيقة ، أما فى الرحلة الخارجية ، فلعل أهم ما يتعلمانه هو ما نبههم اليه الحكيم الفرنسى الذى صادفاه فى معرض باريس ، وصاحباه ،

وامتزجت أفكارهما مع أفكاره طوال اقامتهما مع الصديق المصرى فى العاصمة الفرنسية . . وواضح أن هذا الحكيم كان اشتراكيا ، يناهض الاستعمار ويقف مع الشعوب المضطهدة ، ويدافع عن ثقافاتها الوطنية ضد الأفكار الاستعمارية الوافدة . غير أنه فى الوقت نفسه يرفض أن ينساق مع الصديق المصرى المتطرف فى وطنيته ، حينما يجره هذا التطرف الى الهجوم على كل مظاهر الحضارة الغربية ، وهنا يقول الحكيم الفرنسى موجها كلامه الى الباشا وعيسى والى مصر والشرق كله (لهذه المدنية الكثير من المحاسن ، كما أن لها الكثير من المساوىء ، فلا تغمطوها حقها .. وخذوا منها معشر الشرقيين ، ما ينفعكم .. واتركوا ما يضركم .. واعملوا على الاستفادة من جليل صناعتها وعظيم آلاتها ، واتخذوا منها قوة تصد عنكم أذى الطامعين وشرة المستعمرين وانقلوا محاسن الغرب الى الشرق وتمسكوا بفضائل أخلاقكم) .

وبهذه النصيحة الأخيرة يكون التخطيط العام لمواقف البورجوازية المصرية قد انتهى ، ولهذا ينتهى حديث عيسى ابن هشام ، بعد أن كشف عن الملامح الرئيسية فى وجه مصر كما تريده الطبقة الوسطى الناهضة التى كان مقدرا لها

فى السنوات التالية أن تثور فى سبيل الأهداف التى حددها المويلحى فى كتابه ، وأن تشتبك مع الاستعمار التركى ، وممثلى الاقطاع المصرى الذين خلقهم المستعمرون الانجليز فى سلسلة من المعارك حققت مكاسب جزئية للطبقة الوسطى المصرية ووصلت بها أخيرا الى الحكم .

* * *

بعد هذا التأكيد للمضمون البورجوازى « للحديث » نعود الى مناقشته كعمل فنى ..

قلت فيما سبق أن « الحديث » يعتبر رواية تشغل نفسها بالنقد الاجتماعى الفكاهى . وهذا الحكم قد يجد من يعارضه على أساس أن الكتاب فى الواقع انما هو مجموعة اسكتشات اجتماعية تدين كثيرا لفن المقامة ، وان ما فيها من قصة وشخصيات هو من الهزال بحيث لا يبرر اعتبار الكتاب رواية بالمعنى المألوف لهذه الكلمة .

وردى على هذه الاعتراضات هو أنه فى الوقت الذى لا سبيل فيه الى انكار أن « الحديث » ينبع من فن المقامة ويستند على هذا الفن كثيرا ، فان الباحث المدقق يرى فى هذا الكتاب صراعا ملحوظا بين فن المقامة وفن الرواية ، فالمقامة تغلب على الكتاب فى أوائل الفصول ، ثم لا يلبث

ما فى الفصل من قصة أن يتغلب على المقامة ، فيصبح الدفع فى اتجاه الرواية أوضح ، وأحيانا يكون هذا الدفع من القوة بحيث يحطم السجع ، ويخرج من اساره الى طلاقة النثر الحر . يحدث هذا — على سبيل المثال — فى الفصل المعنون : « الطب والأطباء » فبعد ثلاث صفحات من السجع يبدأ حوار طريف بين الباشا والطبيب حول مرض الأول وسبب نجاته منه ، وهنا نجد الباشا ينطلق من قيود السجع ويرد الطبيب عليه بكلام طويل خال هو الآخر من السجع ، يقص به علينا قصة الدجل الطبى فى مصر ، ووسائل الأطباء والصيادلة فى الاثراء السريع ، ويرسم صورة اجتماعية أخاذة لموقف الأطباء من النساء ، وموقف هؤلاء من الأطباء .

ومظهر آخر من مظاهر الصراع بين المقامة والرواية نجده فى بعض الشخصيات : شخصية العمدة مثلا ورفقائه : التاجر ، والخليع ، والعاهرة ، هذه الشخصيات لا تظهر مرة واحدة وتختفى ، بل هى تستمر فى جزء كبير من الكتاب مما يعطيها كثيرا من سمات الشخصيات المألوفة فى الرواية ، وان كان من الواضح أنها شخصيات بدائية غير متطورة ، كتلك التى نجدها فى البدايات الأولى للرواية الانجليزية ، فى أعمال كاتب مثل هنرى فيلدنج أحد رواد الرواية الواقعية الانجليزية .

وهناك أيضا شخصية الباشا نفسه ، وهذه وان كانت لا تفضل الشخصيات السابقة كثيرا من ناحية العمق وتعدد الأبعاد ، الا أنها تمتاز عنها بشىء واحد ، يؤكد حقها فى التمايز عن غيرها ، وهى أنها شخصية تتطور ، فالباشا يبدأ جاهلا ، متعنتا أحمق ، غير قادر على الفهم ، غير راغب فيه ، ثم يتطور بعد هذا تطورا يدهش عيسى بن هشام . يصف الباشا نفسه هذا التطور فيقول :

« انقلب العسر من أمرى يسرا ، وغدا التقطيب بحمد الله بشرا ، وصرت لا أقابل عيوب الخلق بغير الحلم والرفق ، وتعلمت أن أتحلم ولا أتألم ، وأتبصر ، ولا أتحسر ، وأتدبر ولا أتضجر ، فأنا اليوم أتفكه بمخالطتهم ، وأتروح بمباسطتهم » .

ان هذا التطور الذى يحدث فى هذه الشخصيات هو أحد العناصر الهامة فى كل الفنون التى تقوم على القصة ، مثل الرواية والمسرحية . وهذا العنصر ، الى جانب تكرار ظهور الشخصيات الأخرى فى أجزاء كثيرة من الكتاب ، وبالاضافة الى أن الكتاب يعالج قصة واضحة المعالم تبدأ بقيام الباشا من الموت وتتطور من خلال حركة مادية فى أنحاء القاهرة وباريس وخلال حركة فكرية تتغير أثناءها

نظرة الباشا الى الأشياء ، ثم تنتهى الحركتان المادية والفكرية بخاتمة مقنعة — كل هذه العناصر تبرر اعتبار « حديث عيسى بن هشام » البداية الأولى للرواية المصرية .

وغير منكور — مع هذا — أن هذه البداية لا توجد بحالة « نقية » فى الكتاب فانها تتصارع — كما أسلفت — مع المقامة ، وتتحول فى مراحل من هذا الصراع الى فن وسط ، هو فن رسم الصور الاجتماعية أو الاسكتشات .